

دلالة المكان في الشعر الجاهلي

د. بن بغداد أحمد
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الوشرسي تسمسملت

تهيد:

يستقرئ البحث سلطة المكان في الشعر الجاهلي ويرصد تحولاته المتواترة في النص الشعري الجاهلي بفعل عوامل مختلفة باتت تشكل منطلقا انطولوجيا ولغويا سعى فيه الشعراء إلى تثبيت دلالات توحى عن رؤية جمالية وفلسفية لهذه الأماكن فانتج ذلك خطابا شموليا خضع لشعرية لغوية وأدبية أبرزت كينونة المكان وفاعليته على مستوى العلاقات التقابلية والضدية في النص الشعري. خاض الشاعر الجاهلي محاضرا عسيرا مع الأماكن، فلم يتقبل التحولات التي طرأت عليها لأنها كانت تنبئ في كل تغيير نفيًا وغيابا أبديا لساكنتها وبالتالي اشتداد الحصار على نفسية الشاعر، ولكن رغم ذلك بقي متعلقا بها، متشبثا بعودة الحياة إليها، وهو ما جعله ينشئ دلالات مكانية، بعضها عبر عن ارتباط القبيلة بها، الأمر الذي فتح له الباب بأن يوطدها بالقبيلة، ومن ثم أضحت أسماء هذه الأماكن عالقة بها، سواء في حالة الحرب أو السلم، لحقها القحط والجذب، أو أصابها الغيث والنماء. وعلاقة المكان بالمرأة علاقة اتصال، بحيث في كثير من الحالات تشد المرأة الرحال إلى أماكن بعينها شهدت بروز علامات الحياة مما يفتح المجال أمام الشاعر ليعبر عن معاني هذا المكان ويظهر عشقه لها، ويأمل أن يتواصل بقاءها لمدة أطول ليعيد تكرار هذه الأماكن في نصه الشعري. فما هي معاني هذه الأماكن وما دلالتها في النص الشعري الجاهلي؟ وهل ذكرها نابع عن تجربة شعرية؟ أم هي عبارة عن معجم شعري يستدعيه الشاعر حين يحتاج إليها؟

1- الدلالة القبلية:

يحيل المكان في الشعر الجاهلي إلى أبعاد دلالية رسمت معالمها على الأفق النفسي والاجتماعي والتاريخي، فنحتت هذه الأماكن صورها على مخيلة الشاعر، «ولعل شعراء الجاهلية واعون بهذه الدلالات عند استعمالهم للأعلام الجغرافية مثلما استعملوا الأشكال الطبوغرافية، مع الإشارة إلى أن النوع الأول يتميز بغناه الدلالي في حين يكاد النوع الثاني يقتصر على دلالاته الجغرافية»¹، ومن هذا المنطلق تعدد دلالات المكان في الشعر الجاهلي، وتظل رافدا من روافد الحركة التي تطبع مضمون النص وتُسهم في إدراك مرامييه وتتبع مقاصده. إن المواقع التي تنتمي إليها القبيلة تشكل رافدا دلاليا تولد عن أسس معرفية، استوطنت في مخيلة الشاعر الجاهلي، وبالتالي صار علامة شعرية جاهلية لا مراء فيها، وهو ما يعطي الانطباع أن الشاعر يريد القبض والحصول على كل ما يمت بصلة إلى القبيلة حتى لا تصبح عرضة للنسيان، «فليس الطلل أحجارا أو رمادا وملعبا للبهيم عن هجرة الحبيبة، وإنما هو كوة تُطل على الأيام الخوالي وهنيئات الهناء وخيلاء الشباب»²، لقد تطابق المكان مع الشباب الذي بدون شك يرمز إلى القوة والفتوة، مما يعكس ويبين أن الفترات التي يقضيها الشاعر وسط هذه البيئة لا يمكن بأي حال من الأحوال نُكرانها، لأنها سجل وتمازج لأحداث مهمة ومختلفة.

1-1 اللوى:

ونظرا للمكانة الخاصة التي تميز بها المكان الخصب عن غيره من الأماكن جعله قبلة لنزول القوافل للاستقرار فيه، فكان "اللوى" الذي ذكر عند الكثير من الشعراء يمتاز بخاصية سهولة التحديد، ومنه يرى أن "اللوى" أرض صلبة صالحة لإقامة الخيام.

يقول امرؤ القيس:

فَقَا بَلَّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ³

يقول زهير بن أبي سلمى:

إِلَى هَرَمٍ سَارَتْ ثَلَاثًا مِنَ اللَّوَى فَنَعَمَ مَسِيرُ الْوَائِقِ الْمُتَعَمِّدِ⁴

وقد يحيل "اللوى" إلى دلالة غزلية، لأن من متطلبات الغزل والحب هو وجود عناصر الاستقرار والماء والغيث، فذكره عند الشعراء يرتبط بمناسبات غزلية هامة.

يقول طرفة بن العبد:

مَوْلَاتَانِ تَعْرِفُ الْعَتَقَ فِيهَا كَسَامِعَتَي شَاةٍ بِحَوْمَلٍ مُفَرَّدٍ⁵

وقد تنقلب مميزات المكان الإيجابية من خصب واستقرار وماء إلى ظواهر تنذر بانتشار هاجس الجذب والعطش، وهكذا تتغير ملامح المكان لتنبئ أصحابها بالرحيل، ومن هنا يتشكل بناء هذا المكان على ثنائية الاستقرار/ الرحيل، فيدفع ذلك الشاعر إلى تغيير خطابه، يتبنى الدموع في مرحلة تالية كتعويض لغيث مفقود، وانتظاراً منه للحببية، وفي هذا الإطار تبدو الدموع كمعادل موضوعي للمطر المفقود في بعض الأماكن.

وتبدو في بعض الأحيان التفاتة الشعراء إلى هذه الأماكن بعينها مفتاح لرؤية معرفية انبسطت لدى الشاعر ليؤسس أبعاداً تاريخية وقبلية، يتخذ من هذا المكان ظاهرة اجتماعية استوطنت في مخيلة الجاهلي، «أما السبب العام فإنه كامن في جوهر التصور العربي لوظيفة الشعر، وهذا التصور قد تأسس منذ الجاهلية على أن الشاعر لسان القبيلة والمدافع عن أحسابها ووجودها»⁶ لقد أثبتت لفظ اللوى أن موقعها يمثل أكثر من دلالة، بحيث أضحي مكاناً تحيط به أماكن أخرى ليصم على أهميته الخاصة عند العرب، الأمر الذي استنبطه الشاعر الجاهلي، فحزك وجدانه وأظهر تمسكه الشديد به، لأنه تعلّقه يُمثّل مَقَرّاً قبلياً يتطلّب حايته والذود عنه في كل لحظة، ولعل توالي التساؤلات في بداية القصائد عند الشعراء الجاهليين مردّه أولاً إلى التغيير الذي طال كل أرجاء الديار، وتحولها إلى مركز للعبث واللكر والنسيان حين تطأها أقدام الحيوانات، مما يدفع الشعراء إلى إطلاق صرخة للاستغاثة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه لدى الذات الإنسانية الجاهلية، أما السبب الثاني فراجع إلى «توالي ذكر المواضع والأمكنة في مطالع الاستفهام والأبيات التي تليها، أمارات وأدلة على تعرّف المسؤول عنه وسبق عبوره أو الاستقرار فيه مع الإلف المهاجر، تماماً مثلما هي توثيق تملك لجغرافيا القبيلة ومساحات تنقلها ورعيها، حماية من نزوح غيرها اتجاهها، ولأجل ذلك قد توقّد شرارات الحروب مناخية ودفاعاً عن تلك المواضع»⁷، التي أقرها ملجأ وموطناً لا ينبغي لأي مغامر أو عدو أن يمسه بسوء، لأن هذه الأماكن تمثل هوية قبلية.

يقول زهير بن أبي سلمى:

لَمَنْ الدِّيارُ بِقُتَّةِ الحِجرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرٍ
لَمَنْ طَلَلُ بَرَامَةٍ لَا يَرِيْمُ عَفَا وَخَلَا لَهُ حُقْبٌ قَدِيمٌ
دَارٌ لَيْسَلِي إِذْ هُمْ لَكَ حَيْرَةٌ وَإِخْلُ أَنْ قَدْ أَخْلَفْتَنِي مَوْعِدِي¹⁰

لقد اتضحت ملامح ذلك المكان الذي عُدَّ منطقة قبلية تتطلب الاعتراف به وممارسة الطقوس القبلية عليه، ومن ثم يبقى مرجعاً تاريخياً للقبيلة، وهو سجل وتوثيق لأهم الأحداث التاريخية. «فكل بيئة كانت تمدّ الشاعر بروافد طلبية تبعاً لمسميات أمكنتها التي أودعها خلاصة ذكرياته، فأثرت فيه حتى أسقط عليها نفسه ووجدانه، لأنه يريد أصحابها، لذلك أسرف في ذكرها لأنها متنفس عواطفه وأحلامه، كما كان لهذه الأمكنة في المقدمات الطلبية دلالات قبلية»¹¹، الأمر الذي يوحي بأن الشاعر أراد استبدالها بتحقيق أبعاد فنية تكون بمثابة المزيج والمظهر لتلك الأدران النفسية التي قد تصيب فؤاد الشاعر كالقلق والخوف، فبات الانفصال الكلي عن المكان في ظل توالي الهزات النفسية والاندثار الجسدي الذي غدا حديث الشعراء يمثل صيرورة زمانية تشابكت خيوطها وتعددت تحليلاتها، الأمر الذي دفع الشعراء إلى حمل القضايا الكبرى لمجتمعهم عبر قناة خطابية تستدعي من المتلقي التعاطف مع ذات الشاعر، ليتم ذلك الانصهار النفسي المفقود في بداية المقدمة الطلبية، ما يعطي الانطباع أن الشاعر فتح حيزاً نفسياً في قرارة نفسه، ليتسنى للمتلقى ملء ذلك الفراغ النفسي الذي أحدثته عملية استرداد الماضي في ذلك المكان «الذي تطابق مع ذات الشاعر فيما يستحضره من صور لمدرّكاته الخارجية الماثلة في لوحة الأطلال، والمرتبطة بالتجربة الزمنية، هو ما أدى بالشاعر إلى إشراك المتلقي همومه حين الإصغاء إليه»¹²، فانصهار القبيلة مع المكان أمر لا مفر منه، تتجدد بتجدد الحياة في المواقع، وتجد صعوبات في العيش ويعتورها الشك في البقاء، إذا عاد المكان مخيفاً زرعت فيه بوادر الفناء.

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْطُّبَيَّاتُ فَالذَّنُوبُ
فَرَاكِسُ فَتَعِيلِيَّاتُ فَذَاتُ فِرْقَيْنِ فَالْقَلْبُوبُ
فَعَرْدَةٌ فَفَقَا حَبِيرٌ لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ عَرِيبُ
وَبُدِلَتْ مِنْهُمْ وَحُوشاً وَغَيَّرَتْ حَالَهَا الْخُطُوبُ
أَرْضٌ تَوَارَتْهَا شُعُوبٌ وَكُلٌّ مِنْ حَلَّهَا الْخُطُوبُ¹³

ولم تكن تلك الرؤية الجاهلية للمكان قد خضعت خضوعاً كلياً إلى المصير الذي عض بأنيابه على حياة الشعراء، «فالإنسان في كل زمان يسأل عن وجوده ومصيره ونهايته... لقد ملأ التفكير في الوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته، غير أنه لم يكن تعبيراً صادراً عن تشاؤم؛ وإنما كان حافظاً يحفره على الحياة، واستئناف الرحلة بروح وندية»¹⁴. فمهما تداعت حالات اليأس والتشاؤم على الشاعر نتيجة العوامل الكونية التي أحاطت به، إلا أن ذلك لم يثن من عزيمته، ظل يقاومها، يبحث عن منفذ للخروج من سوء المآل، لذلك ألفناه يتردد على الأماكن رغم أنها تحمل له تصورات إنهازمية.

إن القبائل العربية حين وطدت علاقتها بالمكان كان من أجل التقرب من مواضع الماء والكلاء، فالطبيعة الصحراوية القاسية لشبه الجزيرة العربية ساقطت العرب إلى الترحال، إذ لم يعد الاستقرار السمة البارزة في حياتهم، ولذلك فوجود الماء أضفى يجلب إليه أنظار الجاهليين، لذلك تشد الرحال إلى هذه الأماكن لتحقيق البقاء والإقامة.

ارتبط المكان في الشعر الجاهلي بالماء في أحيان كثيرة، فإذا اندثر الماء وزال عنه فقدت القبيلة هويتها، يضطرها إلى البحث عن مواقع أكثر خصبا وأوفر ماء، لذلك فقطب المكان / الماء دلالتان حفظها الشعر الجاهلي عبر مدونته، لتبرز أن حديث الشاعر عن المكان تداخلت فيه معطيات كثيرة من أهمها الماء، حيث يبدو هذا العنصر موطئ خطاب دلالي بالغ الأهمية.

3-1 جرثم:

يظل جرثم موقعا هاما في الشعر الجاهلي، باعتباره مكان استوطنت فيه بعض القبائل التي شددت الرحال إليه، وما الصورة البصرية التي تراءت لدى الشعراء بمرور الطعائن عليه والإقامة فيه لخير دليل على مدى توفر شروط الحياة، فهذا زهير بن أبي سلمى يتتبع خطوات الرحلة بكل تفاصيلها، ليكشف أن قبيلته فضلت المكوث في جرثم تقديسا له، لأنه مكان ألفت القبيلة نزوله بعد اشتداد أزمة الماء.

يقول زهير بن أبي سلمى:

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ تَحْمَلُنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمٍ¹⁵

فالرحلة التي صوّرها الشاعر انطلقت للبحث عن أماكن توفر الماء للقبيلة من أجل التغلب على مصاعب الحياة وقساوة الطبيعة، فجرثم الذي يمثل ماء بعينه¹⁶، كان هدفا للقبيلة من أجل وروده وبالتالي الإقامة فيه.

فَلَمَّا وَرَدُنْ الْمَاءَ رُزْقاً جَمَاهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ¹⁷

إن المأساة التي طالت أرجاء المكان بغياب أهم مورد طبيعي للإنسان الجاهلي ألا وهو الماء، قد ألقى بظلاله على الحياة الإنسانية الجاهلية، «إنها مأساة الانهيار الحضاري الذي حول الحياة المستقرة إلى حياة بدوية رعوية قاسية، إنها مأساة الجذب والتصحّر الذي ابتلع الخصب وقضى عليه فأسقط في يد الإنسان الذي ابتلي بالترحل وعدم الاستقرار»¹⁸.

إن ثنائية الحياة والموت من الهواجس التي حفرت تجاعيدها في مخيلة الشاعر الجاهلي فرسم صورا، كان سعيه فيها ماثلا في توفير أسباب تجلعه يتخطى ذلك الخوف والقلق الذي غزا نفسيته، فالقبيلة تبحث عن سبل البقاء والعيش الكريم، ولا يتم ذلك إلا بالتخندق في مكان ينقذ الإنسان الجاهلي من اللااستقرار «إن تلك القبائل للأمكنة سواء أكانت من أهل المدر أو من أهل الوير يعني وجود أوطان قبلية مستقلة داخل إطار المدى الجغرافي الواحد الذي تعيش فيه تلك القبائل، ويعني أيضا شيوع الاستقرار السكاني في العصر الجاهلي، فالقرار في الحواضر الزراعية والتجارية والسياسية أمر مسلم به»¹⁹، ولذلك يبقى المكان بالنسبة للقبيلة سجلا تاريخيا يؤرخ للفترات الزمنية السابقة التي يتزامن وجوده في هذه الأراضي. إن القبيلة تسعى بكل ما تملك إلى الاستيطان في مكان يرجع لها هويتها ويحميها من كيد الكائدين الذين يترصون بالقبيلة لالتقاض عليها وتجريدها من أملاكها، وبالتالي فكان القبيلة يمثل هويتها التي تفنخر بها أمام الأعداء: «إن الارتباط بالمكان الذي علق بذهنية العربي خلال هذه الفترة أمر مشروط في حياته فرضته طبيعة التكوين المادي المجسد في صراعه مع الطبيعة القاسية»²⁰، التي دفعت القبيلة إلى الاحتماء بهذه الأماكن.

4-1 الأرطى:

يستقطب هذا المكان عنصرا هاما في النص الشعري الجاهلي وهو ثور الوحش، فما إن يقترب الخطر منه، ويشعر بأن الموت يترصده، يختار هذا المكان للنفي المؤقت إلى حين مرور هذا التهديد بسلام.

يقول عمرو بن كلثوم:

وَنَحْنُ الْحَاسُونَ بِذِي أَرَاطَى تَسْفُفُ الْجِلَّةُ الْخَوْرُ الدَّرِينَا²¹

عاد ذو الأراطى مكان مشترك بين ثور الوحش والمنهزمين، ولذلك يعد هذا المكان دلالة للاحتواء من بطش الآخر، ومنه يمكن القول إن ذا الأراطى صار قبلة للمعدومين والباحثين عن الأمان وهو ما يشكل أيضا دلالة على الفقد والضعف.

ولا يتوقف تعلق الشاعر الجاهلي ببعض الأماكن دون غيرها، فإذا كانت قد شغلت بال الجاهلي، فذلك راجع لا محالة إلى مدى التبعية التي خلفتها في نفوس الجاهليين، فغدت الأماكن تخفي في أحيان أخرى خصوصيتها «وهو نعت يفضي دون شك إلى الدلالة القبلية»²²، فكثيرا ما تعلق قلوب الشعراء بها، لأنها تمثل ملاذا آمنا يلتحق بها الشاعر إذا ما الدهر غدر به.

1- 5 ضرغد:

ضرغد مكان تعاطف معه طرفة بن العبد لأنه اشتمل على بعض الموصفات التي تليق بالمكان المبحوث عنه من قبل القبيلة.

فَدَرْنِي وَخُلِقِي إِنِّي لَكَ شَاكِرٌ وَلَوْ حَلَّ يَتِي نَائِيًا عِنْدَ ضَرَّغْدٍ²³

إن الشاعر وهو يقف عند المكان "ضرغد" استلج أهميته بالنسبة للقبيلة، إذ بإمكانها القيام فيه، لأنه يتوفر على بعض خصوصيات المكان أهمها: الخصب، وبالتالي فالإقامة فيه لن تكون مهددة.

يسعى الشاعر إلى ذكر جميع الأماكن ولا يلتزم بمكان واحد في خطابه الشعري، فهو موضع تحيا به القبيلة، ويعد جزءا لا يتجزأ من وجودها وكيانيتها، فمغادرتها لن تكون إلا بشح السماء وتغير ملامح هذه الأراضي. ومهما يكن فإن المكان لدى القبيلة إرث لا يتوارى، اتخذته ملاذا من بطش الدهر والأعداء، واعتبر دليلا على أن النشاط الإنساني لا تستقيم له استقامة إلا بوجوده.

يقول طرفة بن العبد:

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ تَهْمِدُ تَلُوْحُ كِبَاكِي الْوُشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ²⁴

لقد تأكد أن غياب المكان عند القبيلة يمثله ويقابله غياب الوطن، حيث لن يمكنها من حفظ موروثها الذهني والتاريخي، فستظل القبيلة مجرد مجموعة من الأفراد تتطير هنا وهناك، فالمكان بإمكانه أن يخلق ذلك التواشع المبحوث عنه دوما من قبل الشاعر الجاهلي، والذي يقيه دوما من متغيرات الزمن، «فكل بيئة كانت تمد الشاعر بروافد طليقة تبعا لمسميات أمكنتها التي أودعها خلاصة ذكرياته، فأثرت فيه حتى أسقط عليها نفسه ووجدانه، لأنه يريد أصحابها، لذلك أسرف في ذكرها، لأنها متنفس عواطفه وأحلامه»²⁵، فاستوطنت في مخيلته، وأضحى نسيانها أضغاث أحلام، ليظل المكان سرا يخفي أخبارا وأحداثا متنوعة ومختلفة للقبيلة، وبالتالي التخلي عنه يمثل مغامرة غير محمودة العواقب، إلا أن صروف الدهر قد تجعل الجاهلي يتخذ موقفا مغائرا، حيث قد يدفع به ذلك إلى تركه، ومن ثم يلجأ إلى موطن آخر يمكن أن يكون غير آمن، لتبقى ظاهرة اللااستقرار السمة الظاهرة في حياة الجاهليين، والتي أرقّت بالفعل يومياتهم، وسار السَّجَالُ بين البقاء والرحيل من الثنائيات التي سيطرت بوجودها على المتن الشعري الجاهلي، «والعربي إن فقدتها أو فقد إحداها لسبب بني كاسيل، أو ذاتي كالحروب والنزاعات، أو غيرها من عوامل الزمن التخريبية -السالبة- انتابه الحزن فراثها مثلا يرثي رحيل عزيز، وبكائها كما يبكي هَجْرَ حبيب»²⁶، الأمر الذي يوجي على العلاقة الوطيدة التي ربطت الجاهلي بالمكان، وفقدانه رمز على فقدان الحبيب، لذلك ليس بالسهولة استبدالها أو مغادرتها لأن فيها «حياته المليئة بالفرح والصخب والحركة، لكنه ربما لم يكن يحس قيمة هذه الأمكنة وهو يعايشها إلا أنه لما ارتحل عنها أو رُحِّلَ عنها، خطرت للشاعر الفنان فبكائها ورثاها بحس مرهف شفاف، طلب لها الحياة والسقيا»²⁷، فهو خاضع لتأثيراتها وتحولاتها، لذا يتطلب الوقوف أمام الأماكن المهدمة والخرية برباطة جأش، وهو ما لا يستطيع فعله، لأن خلوها من ساكنيها أرغمه على البكاء، ويتضح في الابتداء بالسؤال عن المكان المندثر وتعدد الأمكنة في تلك المطالع توطيد لجغرافيا القبيلة، «فتوالي ذكر المواضع والأمكنة في مطالع الاستفهام والأبيات التي تليها أمارات وأدلة على تعرف المسؤول عنه وسبق عبوره أو الاستقرار فيه مع الإلف المهاجر تماما مثلما هي توثيق تملك لجغرافيا القبيلة ومساحات تنقلها ورعيها، حماية من نزوح غيرها اتجاهها، ولأجل ذلك قد توقد شرارات الحروب مناخية ودفاعا عن تلك المواضع»²⁸، عندئذ تبقى القبيلة بحاجة إلى أمكنة تحفظ بها وجودها، وتحميها من التنقل والارتحال وتحقق لها الاستمرارية والبقاء في موطنها الأصلي، وبالتالي يبقى المكان أحد الرموز الأساسية في تشكيل الهوية القبلية وتجسيد مبادئها.

والشعر الجاهلي شاهد على الانصهار الحاصل بين المكان والمرأة فإذا فقد أحدهما تظل المعادلة غير متوازنة، لذلك تعاطى الشاعر مع هذا الموضوع بحرص شديد، فاعتنم تواجد المرأة في هذه الأماكن ليسقط عليها دلالات ارتبطت بالخصب والديمومة، فارتقى بين أحضانها راسماً علاقة غزلية نسجت خيوطها في مواقع مختلفة، فحركت وجدانه وتفاعل معها، وأقبل يحاكي ما حفل به المكان من نماء وماء ليقربه أكثر من حبيبته، لذلك ما تخوم المرأة من المكان؟ وما دلالة الغزلية؟

2- الدلالة الغزلية:

إن المتبصر للشعر الجاهلي يستنبط تلك العلاقة التي سادت بين المكان والشاعر والتي هي قصة حب علقت في أذهان الجاهليين، وأضحت وثيقة تاريخية يذوب بها الشاعر ما علق به من حرقة الزمن الذي أفسد طعم ولذة هذه الحياة، حينئذ يلجأ الشاعر إلى إعادة حكايتها وقصصها ليجلي الموم والأدران التي تهاوت على فؤاده.

تعددت أسماء الأماكن، وفصل الشاعر في دلالتها، وتباينت مميزات فسارح إلى وصفها وذكر ملامحها متفائلاً ببقائها رغم التحولات الطبيعية والهجرة الجماعية اللتان أخلتا باستقرارها، فانتقى أشعاراً لأمس فيها طبيعة المكان الذي استوفى شروط العيش والهناء، لأنه توفر على مواصفات جعلت الشعراء ينشدون الاستقرار فيه مواصفاته الطبيعية التي تجعله حرباً بسياق الغزل، فتبعه ذلك إقامة الشاعر بهذا الموضع آملاً في أن تبقى العلاقة وطيدة بينه وبين محبوبته، فمنه يستمد بقاءه وكيونته، حينئذ يستطيع التغلب على متغيرات المكان وتحولاته ولو مؤقتاً.

1-2 قو:

مكان تنزل إليه القبيلة، فتلوح في أفقه بوادر التقاء الشاعر بمحبوبته، فهذا هو امرؤ القيس يقر بأن "قو" هي الجو المناسب لتلجأ إليه سلمى وتقيم فيه، بعد أن غادرت أماكن غير قادرة على توفير شروط البقاء والإقامة.

سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْلَ قَوْ فَعَرَعَرَا³⁰

إن مميزات "قو" الإيجابية قد طفت على سطح حياة الشاعر ومحبوبته، فاستوجبا منها ذلك إقامة علاقة غزلية تتناسب مع المكان الذي حلت فيه، وتوفر على عوامل الاستقرار، لينتشل الشاعر من ضياع وموت محققين بعد أن فقدت الأماكن السابقة عوامل البقاء والاستقرار.

2-2 "الجو":

أوردته المعاجم العربية على أنه المكان الذي حوى على الأودية المتسعة، وكل ما انخفض من الأرض واتصف بالاتساع.

يقول عبيد بن الأبرص:

أَوْ يَكُ أَقْفَرُ مِنْهَا جَوْهَا وَعَادَهَا الْمَحَلُ وَالْجُدُوبُ³¹

ولم يمر "الجو" مرور الكرام على بعض الشعراء لما فيه من مزايا تكاد الأمكنة الأخرى لا تحويها، فعنترة يشهد على هذا المكان بغزليته لأن فيه يتذكر عشيقته "عبلة"، وهو يعلم أن الخصب والناء لهذا الموضع قد يدفع المرأة إلى المكوث فيه، فالجو مدعاة لحياة رغيدة.

يقول عنترة بن شداد:

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجَوِّ تَكَلَّمِي وَعَمِي صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ وَإِسْلَمِي³²

وإذا كان هذا المكان يحوي شروط الحياة من خصب ونماء فإن النزول فيه ظل حتمية لا مناص منها، فبعد نزول محبوبه عنترة أضحت الإقامة فيه والمكوث على أرضه من طرف قبيلته هدفاً لمنشوداً، لأن ما يميز "الجو" من خصوصيات هامة كالماء والكلاء، يغري الشاعر بأن ينشد أفضل الأشعار لمحبوبته مبدئياً تعلقه الشديد بها.

وَتَحُلُّ عَبْلَةَ بِالْجَوِّ وَأَهْلُنَا بِالْحَزْنِ فَالْصَّمَانِ فَالْمُتَنَّمِ³³

يتحرك وجدان الشاعر نحو هذه الأماكن لنقل تجربة شعرية تداخلت فيه أيام غلب عليها الحزن أحياناً، لأنها فقدت معالمها، وأحياناً أخرى امتازت بثناء سطحها وبواطنها حتى أصبحت هدفاً للأعداء من أجل غزوها، أو مكاناً يلتقي فيه الشاعر مع محبوبته، وأمام هذا الأمر تكون لدى الشاعر تجربة شعرية حتى «أن بعض الباحثين ممن يجتهد في إقناع القارئ بصدق تجربة الشاعر النفسية والمكانية، وربما تجربته الواقعية حين يذهب إلى أن الشاعر الجاهلي سجل تجربته من خلال تلك الأمكنة التي أتى على ذكرها بعد أن ألفها

وعاشها»³⁴، من هذا المنطلق تكون تجربة الشاعر عند الوقوف أمام هذه الأماكن مركزة على معطيات سابقة، أنتجتها مخيلة الشعراء، وألزم التابعون على متابعتها والسير على خطاها، كما أن بواطن الذات استدعت الخوض في غمار الحديث عن هذه الأماكن للإفصاح عن مكنوناتها وللتعبير عن جوهر العلاقة التي برزت للوجود بين الإنسان والمكان، الذي تحول في غالب الأحيان إلى مسألة البحث عن الوجود وتثبيته، لأنه هدف يسعى الوصول إليه، فما المرأة إلا عنوان لمكان شهد تقاربا عاطفيا كبيرا، وتحليدا لقصص غرامية كان المكان السبب الأول في بروزها وولادتها.

3-2 عنيزتان:

لم يقتصر الشعراء الجاهليون على ذكر الأماكن السابقة فقط، بل تعدى ذلك إلى حديثهم عن مواضع أخرى أثبتت التجربة أنها تبقى ملتقى للمغرمين، وبهذا ترد المرأة وتؤكد حضورها في مجموعة من الأماكن أغلبها تمتاز بغزارة مياحه ما يشد الانتباه إلى أن غياب الماء يقابله غياب الحبيبة.

يقول عنيزة بن شداد:

كَيْفَ الْمَرْأُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
بُعَيَّرَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْعَيْلِ³⁵

فحبيبة عنيزة أقامت بهذا المكان لما حل به من ماء، لذلك ألقت التواجد والإقامة فيه، فهذا «الموضع يتردد بدلالته الغزلية عند غيره من الشعراء، فهو مكان إقامة الحبيبة»³⁶، فهذا الموقع يعتبر حالة إيجابية تلجج إلى وجدان الشاعر لأنه جمع بين عنصرين هامين، المرأة والماء، وبالتالي يحاول عنيزة التودد بهذا المكان لأنه عرف فيه الحب والاستقرار، ويسعى امرؤ القيس إلى الاستيطان عند عنيزة، لأن ما وجد فيها من ماء لا يتطلب منه المغادرة، فيقول:

تَرَأَتْ لَنَا يَوْمًا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ
وَقَدْ حَانَ مِنْهَا رِحْلَةُ فُقُلُوصِ³⁷

أثبتت الأيام والسنون أن الأماكن التي يقربها الجاهليون هي بمثابة أوطان مؤقتة لا يكاد الشعراء يغادرونها بمجرد وجود أوطان أخرى توفر لهم شروط الحياة من ماء وكلاء، وحبيبة تبادله ويبادلها شعورا صادقا، وإذا تغيرت هذه المعطيات فلا مجال إلا للبكاء، «وهو بكاء الوطن المتنقل، هذا الوطن الصغير الذي يمثل جزءا من حياة الجاهلي، ولكن سرعان ما يستبدله بوطن آخر حين يعز الماء والكلاء»³⁸. من هنا اشعلت الأماكن في الشعر الجاهلي جذوة الشعراء، وظلت تشكل مخاضا عسيرا، إذا لم توفر له شروط الحياة الهادئة والملائمة، فيظهر خوفه وعدم ثقته فيها، فيأرس عليها طقوسا مختلفة، خوفا من فناءه الأبدى، كالبكاء الذي يعتبره مؤشرا دلاليا على نشدانه للخصب، ومنه سقى المكان حتى تعود إليه الحياة.

خاتمة:

لقد أبدى الشعراء الجاهليون ردة فعل مختلفة على المواقع والمواضع التي تباينت فيها مميزات المكان، فيصاب باليأس والقلق إذا غابت الحبيبة وغاب الماء، ثم سرعان ما ينتشي بعودة الأمل إلى الحياة من خلال الوصول إلى أماكن برزت فيها علامات الحياة وقل فيها الموت، وهو ما يعكس تلك الجمالية الشعرية المكانية التي حفل بها النص الشعري الجاهلي. وإذا كان تنوع أساء الأماكن قد حرص عليه الشاعر الجاهلي الأمر الذي أنتج دالتين تولدت الأولى عن واقع لا يختلف فيه أحد وهو أن القبيلة لا تستغني إطلاقا عن أماكنها سواء في الحرب أو السلم لأنها تمثل تاريخا غير قابل للنقاش، أما الدلالة الثانية التي حركت الشاعر لتوظيفها في نصه فارتبطت بالمرأة، ومنها تولدت معاني الود فتمنى أن تبقى محبوبته في هذا المكان حتى يستمر الخصب فيها لأنها كانت تمثل ثراء لا حدود له. وتبقى دلالة المكان في النص الشعري الجاهلي ثرة لا تنضب، تحتاج إلى من يخرج أدواته الإجرائية لاكتشاف دلالات أخرى.

الهوامش:

- 1- رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط. 01، 2000، ص. 47.
- 2- عبد الإله الصائغ، الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط. 1 1997 ص. 63.
- 3- امرؤ القيس، الديوان، شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، لبنان، ط. 01، 1994، ص. 09.4
- 4- زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، (د.ت)، لبنان، ص. 26.
- شرح المعلقات العشر، تقديم: مفيد قمحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 111.
- 5- نسيم راشد الغيث، النص الشعري العربي القديم، مقاربات وإضاءات، دار جرير، الأردن، ط. 01، 1432هـ/ 2011م، ص. 16.

- 6- عبد الكريم الرحيوي، الشعر الجاهلي في ضوء الدرس اللغوي الأسلوبى الحديث، دار كوز المعرفة، الأردن، ط. 01، 2015، ص. 198-199.
- 7- زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص. 29
- 8- المصدر نفسه، الديوان، ص. 82
- 9- المصدر نفسه، الديوان، ص. 94
- 10- ينظر: بوجمة بوبعوي، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. 2001، ص. 40.
- 11- عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار الصفاء، الأردن، ط. 01، 1998، ص. 245.
- 12- شرح المعلقات العشر، قَدَّم لَهُ وشرحه: د. مفيد قبيحة، دار الهلال، بيروت، ط. 1997، ص. 431.
- 13- ينظر: عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار الصفاء، الأردن، ط. 01، 1998، ص. 250.
- 14- شرح المعلقات العشر، قَدَّم لَهُ وشرحه: د. مفيد قبيحة، دار الهلال، بيروت، ط. 1997، ص. 152.
- 15- المرجع نفسه، ص. 152.
- 16- ينظر: إساعيل أحمد العالم، موضوعات الصورة الشعرية في شعر طرفة بن العبد، مجلة جامعة دمشق، المجلد 18، ع. 02، 2002، ص. 91.
- 17- فاروق أحمد سليم، الانتماء في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. 1998، ص. 196.
- 18- عبد القادر فيدوح، الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار الصفاء، الأردن، ط. 01، 1998، ص. 252.
- 19- شرح المعلقات العشر، قَدَّم لَهُ وشرحه مفيد قبيحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 244.
- 20- رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، المدارس، الدار البيضاء، ط. 01، 2000، ص. 89.
- 21- شرح المعلقات العشر، قَدَّم لَهُ وشرحه مفيد قبيحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 118.
- 22- المرجع نفسه، ص. 105.
- 23- بوجمة بوبعوي، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. 2001، ص. 40.
- 24- عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي، كوز المعرفة، الأردن، ط. 01، 2014م، ص. 18.
- 25- ينظر: عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي، ص. 18.
- 26- عبد الكريم الرحيوي، جماليات الأسلوب في الشعر الجاهلي، ص. 199/198.
- 27- امرؤ القيس، الديوان، شرح وتحقيق حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت، ط. 01، 1994، ص. 45.
- 28- عبيد بن الأبرص، شرح المعلقات العشر، شرح مفيد قبيحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 432.
- 29- عنتر بن شداد، شرح المعلقات العشر، شرح وتقديم مفيد قبيحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 275.
- 30- شرح المعلقات السبع، شرح الزوزني، دار الآفاق، الجزائر، (د.ت)، ص. 104.
- 31- ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، تونس، ط. 1977، ص. 39.
- 32- شرح المعلقات العشر، شرح وتقديم مفيد قبيحة، دار الهلال، لبنان، ط. 1997، ص. 277.
- 33- رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط. 01، 2000، ص. 93.
- 34- شرح المعلقات العشر، تقديم مفيد قبيحة، دار الهلال، ط. 1997، ص. 69.
- 35- بوجمة بوبعوي، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط. 2001، ص. 60.